الفصل الحادي عشر:

يرتبط اليوم التالي للرحلة بذهني بحادثة سميتها بعد جهد جهيد بالمغامرة، ودعوني أسميها بالمصيبة الصغيرة، وقد أضجرتني عندما حدثت وكأنها مغامرة حقيقية «ولكن لا أحد يعرف مثل من كان وسط أحداثها كم كانت مزعجة»، ولم تخلف وراءها الذكرى المتبّلة لخطر محتمل تضيف ذكراه حيوية للجلسة بجانب المصطلى.

تركنا قلعة المضيق في الساعة الثامنة صباحاً وسط أمطار غزيرة، وسرنا متجهين شمالاً نحو جبل الزاوية، وهو مجموعة من الهضاب تقع بين وادي العاصي وسهول حلب الواسعة، وتحتوي سلسلة الهضاب هذه على عدد من البلدات الأثرية المهدمة تنتمي إلى الفترة الواقعة ما بين القرنين الخامس والسادس الميلادي، ويسكنها الآن جزئياً الفلاحون السوريون، وقد وصفها على نحو مفصّل كل من (دي فوجيه وبتلر).

وتوقف المطر بينما كنا نصعد منحدر تلال قليلة الارتفاع، حيث كانت كل الأراضي ذات التربة الحمراء مفلوحة، والقرى مرصعة بأحراج الزيتون، والمنطقة بحد ذاتها مشهورة بجمالها الخاص، وزاد من شهرتها وجود عدد من المدن الميتة المتناثرة على نحو كثيف في أرجائها.

في البداية لم تكن الخرب أكثر من كومات صغيرة من الحجارة المنحوتة، ولكن في كفر نبل اختلفت الصورة حيث يوجد بعض المنازل الجيدة وكنيسة وبرج ومقبرة كبيرة جداً تحتوي على قبور حجرية منحوتة. هنا تتغير طبيعة

الأراضي، حيث تتقلص الأراضي المفلوحة إلى بقع صغيرة متناثرة. كما تختفي التربة الحمراء ليحل محلها أراض صخرية جرداء، ينبثق منها خرب رمادية أشبه بجلاميد صخرية ضخمة متعددة، لابد أنه كانت هناك مساحات أكبر من الأراضي المزروعة عندما كانت هذه المنطقة تعيل أعداداً كبيرة من السكان ممثلين بسكان هذه المدن المخربة، ولابد أن أمطار السنين الطويلة قد أدت إلى تهديم المصاطب الأرضية الصناعية جارفة تربتها الخصبة نحو الوديان، وبغير هذا الاحتمال لم يكن يستطيع سكانها السابقون أن ينتجوا منها ما يكفي لإعالتهم.

إلى الشمال من كفر نبل، وعبر شبكة من الممرات الصخرية ظهرت أسوار خربة حاس الرائعة التي كنتُ تواقة لرؤيتها بشكل خاص، وأرسلت البغال مباشرة إلى البارة محطتنا المختارة في تلك الليلة، واستأجرت فلاحاً ليكون دليلنا في هذا القفر الصخري، وانطلقت مع ميخائيل ومحمود، كان الطريق يتلوى صعوداً وهبوطاً بين الصخور، وكان ثمة حزم ضيقة من العشب مبعثرة على نحو كثيف بين الصخور، وكانت شمس العصر تشع حارّة فوق رؤوسنا، وترجلتُ وخلعتُ معطفي وربطتُه كما أظن بقوة إلى سرج فرسي وتابعت المسير مباشرة بين الأعشاب والزهور.

وكانت هذه بداية الحادثة الصغيرة، كانت خربة حاس مهجورة تماماً فيما عدا خيمتين سوداوين، كانت شوارع السوق خالية، وقد سقطت جدران الدكاكين في قلبها، وقد خلت الكنيسة منذ مدة طويلة من المؤمنين، والمنازل الفخمة كانت صامتة صمت القبور، والحدائق المسيجة كانت مهملة، ولا أحد يأتي لينضح الماء من المصانع العميقة، وجعلني سحرها وغموضها ذاهلة عما

حولي حتى قاربت الشمس على المغيب، وهبت رياح باردة ذكرتني بمعطفي، ولكن يا للأسف عندما عدت إلى فرسي لم أجد المعطف معلقاً في السرج، والمعاطف الصوفية الثقيلة لا تنمو على أي عشب في شمال سوريا، وكان واضحاً أن جهداً يجب أن يبذل لاستعادة معطفي. وعاد محمود راجعاً حتى وصل إلى كفر نبل تقريباً، ولكنه رجع صفر اليدين، وحل الظلام في هذه الأثناء، وهبت فوق ذلك عاصفة سوداء من الشرق، وكان ما يزال لدينا ساعة ركوب عبر منطقة شديدة الوعورة. وانطلقنا فوراً (محمود وميخائيل وأنا) في طريق غير مرئي كلياً، وليكتمل سوء الحظ هبت عاصفة فوق رؤوسنا فور حلول الغسق، وأصبح الليل حالكاً جداً. ومن خلال المطر الذي كان يضرب وجوهنا فقدنا كل أثر للطريق، وفي هذه اللحظة التقطتْ أُذُنَا ميخائيل نباح

١١٥ ـ منزل في الباره

كلاب متخيلة، فانعطفنا بخيولنا فوراً في الاتجاه المفترض أن يكون النباح جاء منه، وهذه كانت المرحلة الثانية من المصيبة أو المغامرة السيئة الحظ. ويجب عليّ في هذه المناسبة أن أتذكر على الأقل أن ميخائيل كان دائماً أسوأ دليل حتى عندما كان يعرف اتجاه المكان الذي نسعى للوصول إليه. وحظينا على نحو غير متوقع بظهور القمر من بين الغيوم ليرينا بأن طريقنا الذي نسير فيه لن يوصلنا إلى أي مكان، وعندما تأكدنا من هذا الأمر وقفنا وأطلقنا طلقتي مسدس، ظانين بأن القرية إذا كانت قريبة فإن البغالة سوف يسمعون صوت رصاصنا وسيردون علينا بإشارة ما، ولم يظهر أي شيء على أي حال وعدنا القهقرى إلى النقطة التي أعشى فيها المطر عيوننا فقط كي نضل مرة أخرى بالنباح الموهوم، ولننطلق مرة أخرى لتعقب صوت كلبنا الغليظ، وحتى هذا الوقت كنا نسير أبعد في نفس الاتجاه بين الحقول، والله يعلم أين كنا سنصل في النهاية لولا أنني تبينت من خلال ضوء القمر الضبابي أننا كنا نسير نحو الجنوب على حين أن الباره تقع إلى الشمال.

١١٦ ـ حلية معمارية بارزة في الباره في الأعلى، اسكفة باب في خربة حاس في الأسفل

عند ذلك انعطفنا متثاقلين مغيرين اتجاهنا، وبعد أن قطعنا بعضاً من طريق العودة ترجلنا عن خيولنا تحت حائط خربة لنناقش احتمالات أن نأوي هذه الليلة في حد القبور الفارغة، وأن نأكل لقيمات من الخبز والجبن من خرج محمود. وشمّت الخيول رائحة الطعام فأتت نحونا، وأطعمت فرسي نصف نصيبي من الخبز؛ لأنه بعد كل شيء قد تحمل نصف النصيب من التعب. وأعطانا الطعام بعض النشاط. وركبنا.. ووجدنا أنفسنا في ومضة عين في مفترق الطريق الأصلي للمكان، من هناك اتخذنا طريقاً ثالثاً وفي خلال خمس دقائق كنا في قرية الباره التي ظللنا ندور حولها ثلاث ساعات، كان البغالة نائمين في الخيام، وأيقظناهم بخشونة وسألناهم فيما إذا كانوا قد سمعوا إشاراتنا، وأجابوا بجزل نعم. لكنا ظننا أنه ربما كان لصاً استغل العاصفة الليلية لقتل إنسان ما، ولم يُعيروا الموضوع إلا اهتماماً قليلاً.

هذه هي مجمل قصة المغامرة السيئة الحظ، وأنا أشعر بالخجل لروايتها. وقد علمتني هذه الحادثة أن لا أشك بصحة حوادث مشابهة يمكن أن تحدث في حياة الرحالة الآخرين، والتي لدي الآن سبب وجيه للتسليم بصحتها تماماً.

مع أن الباره قد تكون غير محمولة في الليل، ولكنها في النهار هي الأروع والأكثر جمالاً، إنها تشبه مدينة الأحلام التي يبنيها الأطفال لأنفسهم ليسكنوا فيها ما بين وقت الذهاب للفراش والنوم، بانين قصراً بعد قصر تحت الطرقات المنارة بالخيال، ولا يوجد كلمات يمكن أن تعبر عن سحرها ولا عن سحر الربيع السوري، أجيال من سكان البلدة الأموات يتجولون معك في الشوارع، يُخيل إليك أنهم أمامك يتحركون في شرفات منازلهم، أو يحملقون عبر النوافذ، يضعون على رؤوسهم أكاليل من الياسمين البري الأبيض،

يتجولون في حدائقهم المسيجة التي لا تزال مزروعة بالزيتون والكرمة، وقد فرشت أرضها بالسوسن والصفير وشقائق النعمان، وتحاول أنت بعد أن تؤرخ لهم دون جدوى، فهم لم يلعبوا دوراً متميزاً في التاريخ، ولكنهم كانوا قانعين بأن يعيشوا بسلام، وأن يبنوا لسكناهم منازل فخمة، وقبوراً جميلة ليرقدوا فيها بعد موتهم. ومما يُثْبت تحولهم إلى المسيحية مئات الكنائس المهدّمة والصلبان المنحوتة على أبواب ونوافذ مساكنهم، وهي كافية لأن تظهر أنهم كانوا فنانين بالتزيين والزخرفة، فقد أغنوا منازلهم الفسيحة وبيوتهم الصيفية وحظائرهم وأفنية بيوتهم. لقد استعاروا من الإغريق أساليبهم في الزراعة ومن فنونهم حسب حاجتهم، ومزجوا ذلك بالروح الشرقية الرائعة التي لا تتنفس بدون أن تؤثر بالخيال الغربي، لقد عاشوا براحة وأمان مثل قلة من معاصريهم الذين كانوا على صلة بهم، وأتى الاجتياح المحمدي فجرفهم من على سطح الأرض [1].

لقد قضيت يومين في البارة وزرت خمساً أو ستاً من القرى المحيطة بها، وقد عمل شيخ البارة وابنه كأَدلاء لي. كان الشيخ عجوزاً على جانب من الخُبْث يدعى يونس، وقد عمل دليلاً لعلماء الآثار المتميزين في أيامه، وهو يتذكرهم ويتحدث عنهم بأسمائهم أو بأسماء على نمط خاص به بعيدٍ جداً

(١) ليس للفتح الإسلامي علاقة بترك هؤلاء الناس لمدنهم وقراهم ولم يفعل المسلمون ما فعله الأسبان والإنكليز بالهنود الحمر حيث أبادوهم كما هو معروف، وقد بقيت سوريا ذات أكثرية مسيحية حتى أواسط العهد العثماني. وعندما احتل الفرنسيون سوريا ولبنان عام ١٩٢٠ كان عدد المسيحيين يصل إلى ثلث مجموع السكان وهذا ينفي تعرض المسيحيين للإبادة على النمط الأوربي. وأتصور أن للحروب الصليبية التي شنها الأوربيون المتوحشون ولغزوات المغول والتتار وكذلك الزلازل التي حدثت في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلادي دوراً في هجرة سكان هذه البلدات. (المترجم)

عن نطقها الأصلي. وقد استنتجت أنهم (دي فوج، وواد نجتون، وثالث غير واضح أبداً وربما كان ساشو).

وفي سيرجيلا وهي بلدة ذات جو هادئ قاس، جديرة بالاعتبار على نحو لا يمكن مقارنتها بأي منطقة أخرى مع أنها بغير سقوف ومهجورة تماماً، وأخذني يونس إلى قصر بجانبه قبر تمنيت عندما رأيته لو أعيش عمري كله وأدفن بجواره، وعندما غادرته ركب معي حتى دير سنبل حتى يضعني في طريقي، كان قلقاً جداً ذلك اليوم بسبب اضطراب حصل في قرية قريبة؛ وذلك أن رجلاً تعرض لكمين من رجلين من قرية مجاورة من أجل سرقته، ومن حسن حظه أن رجلاً من قريته أتى لمساعدته واستطاع الاثنان أن يردّا المعتدين، ولكن الصديق فقد حياته في القتال، فهاجم أقرباء القتيل قرية

١١٧ ـ قبر في سيرجيلا

اللصوص وأخذوا كل قطعانهم من المواشي. وكان من رأي محمود أنهم ينبغي أن لا يطبقوا القانون بأنفسهم.

قال: «بالله يجب أن يشتكوا إلى الحكومة».

ولكن يونس أجاب بمنطق قاطع: «وما الفائدة من الشكوى إلى الحكومة؟ هم يريدون أخذ حقهم».

وفي أثناء المحادثة سألت يونس فيما إذا كان قد سافر إلى حلب.

قال: «بالله لقد ذهبت إلى هناك، ومشيت في الأسواق، ورأيت القناصل وهم يمشون في الطرقات، ومع كل واحد منهم رجل يمشي أمامه يرتدي معطفاً ثمنه مئتا قرش. والسيدات يمشين معهم وقد وضعن مثل ما يشبه الزهور فوق رؤوسهن «القبعة الأوربية التي كانت سائدة فيما أتصور» تابع يونس «أنا أذهب إلى حلب دائماً عندما يكون ابني في السجن هناك». وأوضح «أحياناً يكون الحارس رقيق القلب بحيث تكفي نقود قليلة للسماح لهم بالخروج».

وتقدمت في الحديث في موضوع ذي أرضية جيدة على ما يبدو وسألته كم ولد لديه.

قال: «ثمانيةٌ، حمداً لله، كل زوجةٍ من زوجتيَّ وَلَدت لي أربعة أولاد وبنتين».

قلت: حمداً لله.

قال يونس: «الله يطول عمركِ، لقد كلفتني زوجتي الثانية مقداراً كبيراً من المال».

قلت: «نعم؟».

١١٨ ـ الشيخ يونس

قال: «الله ينعم عليك، يا سيدة، لقد أخذتُها من زوجها، بالله (الحمد والشكر له) لقد أُجبرتُ على دفع ألفي قرش لزوجها، وثلاث آلاف للقاضي».

وكان هذا الكلام كثيراً بالنسبة لإدراك الحاج محمود حول الآداب الاجتماعية.

أنت أخذتَها من زوجها؟ قال: «والله هذا فعل نصيري أو إسماعيلي.. هل يمكن لمسلم أن يأخذ زوجة آخر؟ هذا حرام».

أوضح يونس: «لقد كان عدوي، بالله وبمحمد رسول الله إن بيننا عداوة حتى الموت».

سأل محمود: «هل لها أطفال؟».

«أي والله» أجاب الشيخ بالإيجاب، شاعراً بالضعة قليلاً أمام اعتراض الحاج محمود.

أوضح محمود وهو مستمر في غضبه: «بوجه الله، هذا عمل كفار».

وهنا وضعتُ نهاية للوصول بالمناقشة إلى أبعد من أهلية القصة للنقاش بالسؤال فيما إذا كانت المرأة راضية بترك زوجها.

أجاب يونس: «بدون شك، إنها رغبتها».

ونحن نستنتج على هذا الأساس أن المبادئ الأخلاقية لا تلعب دوراً كبيراً في هذا المجال، مع أنه أمّن على نحو كبير من الخطر سواء من الزوج أو من القاضي.

وتقودنا هذه المقولة إلى مناقشة المهر المعتاد دفعه للزوجة.

قال يونس (بهيئة من التباهي لا يمكن وصفها): «في مثل هذه الحالة ما نفعله هو دفع ما لا يقل عن أربع آلاف قرش للبنت، أما إذا كان الخاطب فقيراً وليس لديه نقود فمن الممكن أن يعطي أبا البنت بقرة أو قليلاً من الغنم وسوف يرضى».

ركبنا بعد أن تركنا يونس باتجاه الرويحا لعلي أرى الكنيسة الشهيرة حيث يوجد إلى جانبها قبة قبر بيزوس، وهذه الكنيسة هي الأكثر جمالاً في جبل

الزاوية، بمجازها الرائع حتى صحن الكنيسة، وبأبوابها المزينة بالنقوش، وبركائز أعمدتها، وبالأروقة العريضة في صحنها. وكم كانت ثقة البناء وسيطرته على مواد بنائه قوية إلى درجة شجعته أن يمد هذه الأقواس العظيمة من عمود إلى عمود إلى الحد الذي جعلها تبقى واقفة حتى الآن.

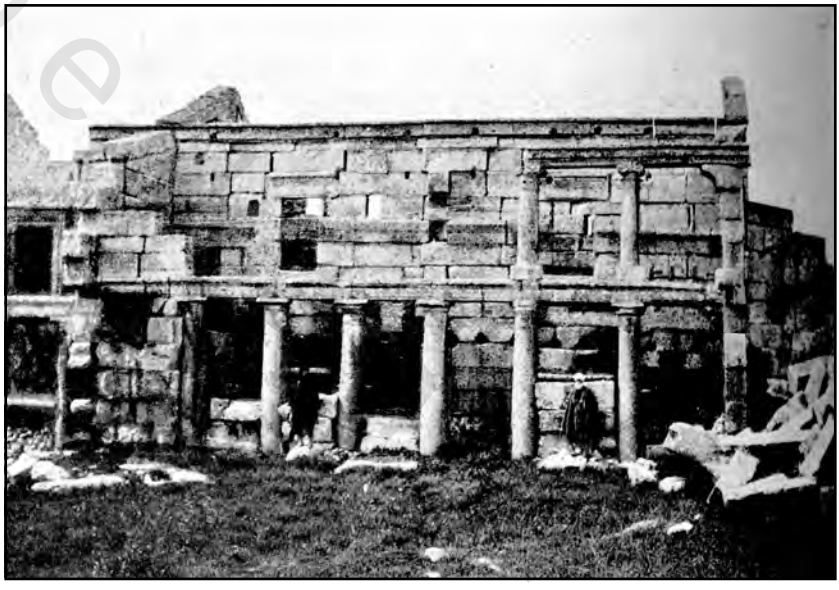

١١٩ ـ منزل في سيرجيلا

وقبر بيزوس الصغير مازال قائماً، وعلى نحو كامل مثلما كان عندما بني، ويوجد على البوابة نقش نحت باللغة اليونانية هذا نصه:

«بيزوس بن باردوس، لقد عشت جيداً ومت جيداً، وأنا أستريح الآن على نحو جيد، صلوا من أجلي».

والملامح الأكثر غرابة في فن العمارة في شمالي سوريا هي البواعث التقليدية نصف المتذكرة التي شقت طريقها خلال الحلى المعمارية القوطية

بشكل تام تقريباً من خلال حريتهم، ومن خلال السطوح المعمدة التقليدية التي تزين النوافذ أو العتبات. ومخطط الزخرفة الحجرية السورية هو بشكل رئيسي صف من دوائر أو ضفائر مملوءة باللفات المغزلية أو بعلامة الصليب المسيحية، ولكن مع تقدم وتطور النحّات السوري وزيادة مهارته فقد رسم الدوائر مع بعضها بمئات من الأشكال الرائعة والجميلة للنباتات الشائكة والنخيل وشجر الغار، صانعاً نماذج فياضة حول كنيسة أو قبر متنوعةً تنوع الخيال الذي أبدعها، فالعشب تحت قدميه والأوراق على الأغصان فوق الرؤوس باعثاً فيها من نضارة فنه الزخرفي أكثر مما فعل الفنان وليم موريس بعد ألف ومئتي سنة.

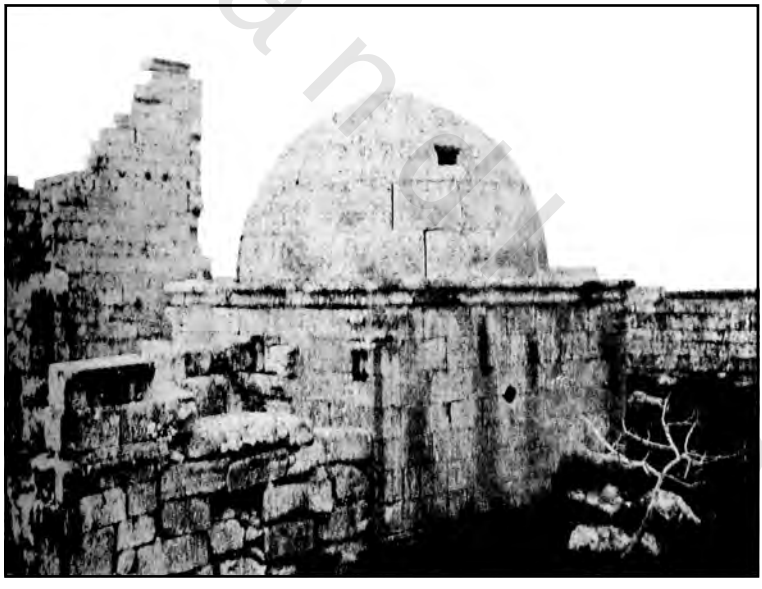

١٢٠ ـ قبر بيزوس

ثمة كنيسة أخرى في الرويحة أقل كمالاً بقليل من كنيسة بيزوس، وأقل روعة من حيث الفن، وهي متميزة بوجود بناء أثري يقع قريباً من الجدار

الجنوبي، وقد قالوا عنه إنه برج ناقوس أو قبر أو منبر وعظ، أو لم يجدوا له تعليلاً بالمرة. والبناء مكون من طابقين يتألف الطابق الأول من ستة أعمدة تدعم رصيفاً، ويرتفع من الجدار السفلي أربع ركائز من الزوايا من أجل حمل القبة. والتشابه مع بعض القبور في إيطاليا كما هو الحال في نصب رولاندينو التذكاري في بولوكَنا ملفت للانتباه، بحيث إن المشاهد يقرر عفوياً بأن الهدف مشابه لذلك البناء الرائع في روما.

خيمنا تلك الليلة في دانا، وهي قرية تفخر بوجود قبر هرمي برواق مكون من أربعة أعمدة كورنثية الطراز، وهي تامة في تنفيذها بنسب متوازنة مثل أي عمل آخر ترغب وتتمنى مشاهدته.

ومررنا بعد خروجنا من الرويحة بمنزل اعتبرته نموذجاً لهندسة البناء المحلية في القرن السادس الميلادي، وهو يقف منعزلاً في منطقة متموجة، يبتعد ميلاً أو ميلين عن أي قرية من القرى المحيطة به.

ويتميز بوجود شرفات متجهة نحو الغرب وبرواق جميل يتميز بسطحيه المنحدرين إلى الشمال، وهذا الرواق يمكن أن يزين أي منزل ريفي في بريطانيا في هذه الأيام، وأنت يمكن أن تتخيل مالك القصر جالساً على مقعد حجري في شرفة منزله ينتظر مجيء أصدقائه من القرن السادس الميلادي، وهو لا يخشى من وجود أي أعداء، وإلا لما بنى بيته هكذا في مكان منعزل كهذا لا يحرسه إلا سياج من أوتاد خشبية محيط بحديقته.

وقد أخذت أكثر مما حدث معي في أي مكان آخر عندما شاهدت قصر البنات كما يدعوه السوريون بمستوى النظام الاجتماعي العالي الذي وصل إليه جبل الزاوية في ذلك الحين، حيث كان الأمان والغنى متوفرين على نحو واضح، وكذلك أوقات الفراغ اللازمة من أجل رعاية وممارسة الفنون.

وبينما كنت أبتعد عنه شعرت متعجبة ومتسائلة فيما إذا كانت المدنية هي بالفعل كما نظن بأوربا قوة لا تقاوم جارفة نحو الأمام، حاملة بقمتها أولئك الجديرين بالاستفادة من تقدمها، و فيما إذا كانت تشبه حركة المد والجزر ترتفع وتنخفض في حركتها جيئة وذهاباً تلمس في مجراها نفس المكان على الشط.

١٢١ ـ كنيسة وقبر في الرويحا

في وقت متأخر من الليل جاء أحد أولاد الشيخ يونس ليسألنا فيما إذا كان أبوه ما يزال معنا، ويبدو أن رفيق رحلتنا المغامر العجوز لم يعد عندما تركَنا إلى أهله القلقين، ولدي شك بأن رغبته الودودة بالذهاب معنا من أجل وضعنا على طريقنا كانت جزءاً من مؤامرة مدبرة بعناية يأمل بوساطتها أن يكون قادراً على أن يلعب دوراً في الاضطرابات المحلية التي كانت تشغله في الصباح. وعلى أيّ حال لقد انطلق حالاً بمجرد أن بعدنا عن مرمى النظر، ويفترض أن يكون قد أسرع إلى حيث يوجد النزاع، ولم أسمع شيئاً عما حدث

له، ولكني على استعداد لأن أراهن بأنه أيا كان شخص القتيل في قرية المغارة فلن يكون الشيخ يونس.

بقي أمامنا ثلاثة أيام مملة ونصل إلى حلب، وقد كنا نستطيع أن نجعل الرحلة يومين، ولكنني قررت أن أضرب قليلاً باتجاه الشرق لأتجنب طريق العربات المعروف جيداً، وأن أستعرض المنطقة التي قد تكون أقل متعة، ولكنها غير معروفة جيداً على الأقل. وبعد مسيرة خمس ساعات من دانا عبر أراض مرتفعة متعرجة وصلنا إلى طاروتين، وسرنا بعدها بمناطق أثرية قديمة، قد استوطنت مرة أخرى من قبل البدو من عشيرة الموالي، مع أن الأبنية القديمة قد هُدّمت تماماً، وقد بدأ البدو على طول الحافة الغربية للصحراء بزراعة الأرض، واضطروا لإيجاد نقاط استقرار ثانية ليكونوا قرب محاصيلهم.

١٢٢ ـ قصر البنات

قال شيخ طاروتين: لقد أصبحنا فلاحين في بعض العصور المقبلة، وعندما يصبح العالم كله يفلح ويزرع الأرض لن يبقى بدوياً في الجزيرة

العربية، في المراحل الأولية سيبقى هؤلاء المزارعون الجدد يعيشون في الخيام، ولكن الخيام ثابتة وما يرافق ذلك من تراكم للقذارة. والقرية غير سارّة لأيّ عاقل، ولم تنس العائلات القليلة القاطنة في طاروتين سلوكياتها الصحراوية، وقد وجدناهم مقبولين على الرغم من الملاحظة الصحية التي وردت أعلاه عن قريتهم المكونة من بيوت الشعر.

لم يكن قد مضى على وجودي في مخيمي ساعة عندما حصل هياج بين رجالي، وأتى ميخائيل صائحاً: «الأمريكيون.. الأمريكيون..». لم يكن غزواً، وإنما بعثة جامعة برنستون الأثرية التي سافرت من دمشق سالكة طرقاً أخرى

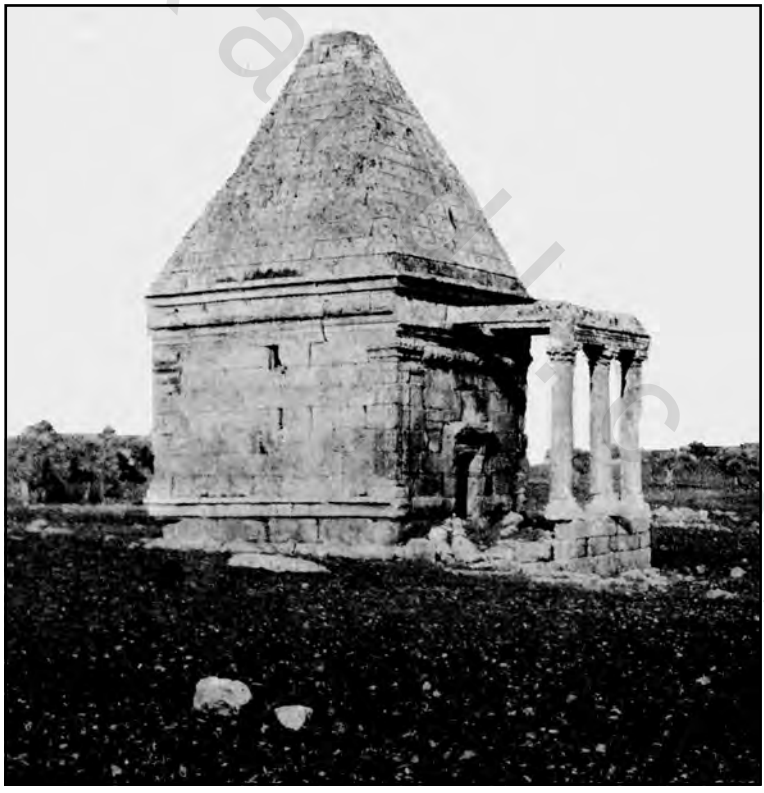

١٢٣ ـ قبر في دانا

غير طرقنا تعمل الآن في جبل الزاوية، وقد اعتبرها مخيمي مصادفة سعيدة؛ لأن كل واحد منا وجد معارف بين السادة أو بين البغالة، ووجد وقتاً للكلام كما يتكلم الناس عندما يلتقون مصادفة في طريق خالٍ.

وأكثر من ذلك أن اليوم الذي قضيته في طاروتين زودني بموضوعِ درسٍ جدير بالإعجاب في علم الآثار؛ فعندما كَشط أعضاء البعثة الخرب، وحلوا شفرات الكتابات والرسوم، نهضت كل مدينة في القرن الخامس الميلادي من تحت الرماد ووقفت أمامنا: الكنائس والمنازل والقلاع والقبور المنحوتة في الصخور، وقد حفرت عليها أسماء وتاريخ وفاة قاطنيها.

في اليوم التالي كان أمامنا مسيرة عشر ساعات، مشينا شمالاً ومررنا في طريقنا بقرية من الطين تدعى حلبان، وقرية أخرى تدعى مغارة مرزة، حيث يوجد بقايا كنيسة وقبور منحوتة في الصخور من طرازٍ بسيطٍ جداً. (ولم تلحظ خريطة كيبرت أياً من هذه الأماكن).

ثم انحرفنا شرقاً ووصلنا إلى التلول، حيث أطللنا على سيل من المياه يمتد اثني عشر ميلاً إلى الجنوب على الأقل من المطخ وهو المستنقع الذي ينبع منه نهر قويق[1]، وشاهدنا في التلال مجموعة من النساء البدويات يندبن فوق قبر جديد، وهن يندبن الميت لمدة ثلاثة أيام بعد دفنه على القبر. وقد قال محمود: فقط في مكة والمدينة لا يندبون الميت أبداً، فعندما يتوقف النفس تصرخ النسوة ثلاثة أصوات ليعلم الناس بحدوث وفاة، ولا يوجد ندب بعد هذه الأصوات فذلك حرام؛ لأن الدموع يجب أن تسقط فوق جسد الميت ـ فالله أعطى والله أخذ ـ.

(١) لا ينبع نهر قويق من المطخ وإنما من الأراضي التركية، ويمر من مدينة حلب. (المترجم)

ثم سرنا جنوباً على طول حافة ظهرة من الأرض حتى تلة صغيرة تدعى تل سلمى، حيث انحرفنا مرة ثانية باتجاه الشرق، دائرين حول مسيل الماء وعلى طول حافته، حتى وصلنا إلى قرية كبيرة اسمها المويمة، نصف بيوتها من الخيام، والأخرى من الطين، فلا يوجد مادة أخرى للبناء بخلاف الطين منذ تركنا الأرض الصخرية، حيث قرية طاروتين لم نشاهد حجرة واحدة، لا حجرة ولا شجرة، ولكن حقول لا نهاية لها من القمح، مع بواكير أزهار الخزامى القرمزية التي ظهرت براعمها بين القمح الفتي، لقد كان مسيراً ثقيلاً رغم أنه مريح لأقدام الخيول. ولو كان هناك مقدار أكبر من التربة فوق هضاب سوريا، ومقدار من الحجارة القليلة فوق السهول لكان السفر أسهل في تلك البلاد، ولكن الله الذي لا إله غيره أمر بخلاف ذلك.

من مويمة سرنا شمالاً بشرق حتى وصلنا إلى قرية تدعى هوبر تحت أقدام قمة جبل حاس، وهنا حاولنا أن نقيم مخيمنا، ولكننا لم نستطع الحصول على شوفان ولا على شعير ولا حتى على قبضة من تبن؛ ولذلك فقد ذهبنا إلى كفر العبد الموجودة على الخريطة حيث نصبنا هناك خيامنا في الساعة السادسة مساء. ربما كانت القرى غير الموجودة في خريطة كيبرت قرى بنيت حديثاً. وفي الواقع لا يزال البعض منها نصف مخيمات. وهي تتكاثر على نحو متزايد. وقد عددت خمس قرى حول حوبر في محيط لا يتجاوز ميلاً أو ميلين، وقد احتفظ العرب الذين يقطنونها بعادات الثأر البدوية. فلكل قرية حلفاؤها وأعداؤها، وعلاقاتها السياسية واهنة شأنها في الصحراء.

وتحتوي يومياتي الملاحظة التالية في ذلك اليوم: «المدادة ذات الأزهار الزرقاء، السوسن الأبيض من النوع الذي كان أزرق في البارة، الحوزان الأحمر

والأصفر. واللقالق والقبرات». هذه المناظر هي التي كانت تكسر رتابة الطريق الطويل.

على بعد نصف ساعة إلى الشمال من كفر العبد، ثمة قرية من القبب تحتوي على لوحات فسيفسائية كاملة تماماً ذات نماذج هندسية، ومن الممكن العثور على قطع فسيفسائية أخرى مبعثرة في المنازل أو في الباحات، والقرية برمتها تحتاج إلى استكشاف مُتأنّ على حين أن الفلاحين الذين يفلحون الأرض يدمرون هذه الآثار التي يمكن العثور عليها أثناء ذلك[1].

ووصلنا حلب في منتصف النهار ودخلنا إليها سائرين بجانب مصرف مياه مالحة مفتوح، وسواء أكان ذلك بسبب الرائحة الكريهة أو بسبب الجو الثقيل المفعم بالرياح المحملة بالغبار كان انطباعي الأول عن حلب مخيباً للأمل «فالاسم بصيغته الأوربية الساحرة يجب أن يخص مدينة أكثر جاذبية، وحلب الساحرة ليست كذلك قطعاً؛ لأنها واقعة في سهل خال من الأشجار، عالم بدون ملامح، بداية منبسطات الهلال الخصيب العظيمة، وموقع المدينة يشبه فنجاناً في صحن، فالبيوت مبنية في الصحن والقلعة تقف على الفنجان المقلوب.

وتشاهد مآذنها من مسافة عدة أميال، ولا يشاهد أي أثر للمدينة قبل الوصول إلى مسافة ميل واحد منها، وبقيتُ فيها يومين لم ينقطع فيها المطر أبداً، ولذلك فإنني لا أعرف حلب، فالمدينة الشرقية لا تسمح لك بدخول دوائرها الحميمة ما لم تمكث داخل أسوارها شهوراً على الأقل، وحتى حينئذ فإنك تحتاج إلى بذل جهود عظيمة للوصول.. ولكنني لن أغادر قبل أن أدرك على نحو ضعيف أن ثمة أشياء يجب أن تعرف.

(١) لقد سرق الغربيون مع الأسف كميات هائلة من الآثار في سوريا والبلاد العربية مستخدمين كافة الوسائل غير المشروعة. (المترجم)

١٢٤ ـ قرية من القبب الطينية

إنها مدينة عربية رائعة، فعندما تمشي في شوارعها الضيقة تمر بمآذن وبوابات تنتمي إلى أجمل مرحلة من الهندسة العربية، بعض المساجد والحمامات والخانات «وبشكل خاص المهدومة والمغلقة» من الطراز نفسه. وتمثل القلعة أفضل مثال للبنائين العرب في القرن الثاني عشر الميلادي في سوريا، مع أبواب حديدية من نفس المرحلة، وقد أرختْ بقطع تزيينية جميلة، ولابد أن هناك عناصر محلية حية تتواصل مع هذه العلامات للعظمة الماضية.

ولكن المدينة قد سقطت تحت ثقل أيام تعيسة، فقد تم حصارها بين امتيازات الأوربيين الحسودين الباحثين عن الفرص، وبين سلطة الحكومة العثمانية التي تعاني منها أكثر من بقية المدن السورية[1]، وهي تموت ببطء؛

(١) هذا الكلام غير صحيح، لقد كانت حلب في العهد العثماني تأتي في المرتبة الثانية بعد استنبول وكانت مركزاً تجارياً لبلاد الشام والعراق والأنضول، ويزيد عدد سكانها كثيراً عن سكان أي مدينة ببلاد الشام بما فيها دمشق، وقد بقيت أكبر من دمشق حتى أربعينات القرن العشرين رغم انحدار تجارتها بسبب تجزئة الدولة العثمانية وخسارتها أسواقها في آسيا الصغرى والعراق. (المترجم)

بسبب عدم وجود منفذ لها على البحر، ولم تُلبِّ سكك الحديد الألمانية أو الفرنسية حاجتها هذه [1]، والشركتان مشغولتان الآن في معارضة إحداهما الأخرى. فالامتياز الأصلي الذي أعطي لشركة حماة رياق ينص على إيصال الخط إلى حلب وشمالاً حتى بيرجيك. وقد أُخبرتُ أن بطاقات السفر إلى بيرجيك قد طبعت عندما مُدّ أول خط في رياق. ثم أتى الألمان بخطتهم العظيمة لسكة حديد بغداد، وقد حصلوا على امتياز لفرع من الخط يصل ما بين حلب وكلس، وفعلوا ما في وسعهم لمنع الفرنسيين من التقدم إلى ما بعد حماة؛ بدعوى أن خط الحديد الفرنسي سوف يقلل من قيمة الامتياز الألماني. ومعلوماتي وقد تكون متخيلة على نحو جيد إلا أنها غير مستقاة من سفارة الإمبراطورية، ولكن من مصادر محلية في حلب نفسها.

وبعد مغادرتي سوريا استأنف الفرنسيون عملهم الذي كان متوقفاً في خط حديد رياق حماة بحيث يمتد الخط حسب اعتقادي ليس إلى بيرجيك، وإنما إلى حلب على أبعد مدى [*]. ولن يكون ذا فائدة للمدينة؛ فتجار حلب لا يريدون إرسال تجارتهم برحلة ثلاثة أيام إلى بيروت فهم يريدون ميناءً قريباً خاصاً بهم يمكنهم من حيازة كل المكاسب التجارية، وهذا الميناء يجب أن يكون الإسكندرونة.

وكذلك فإن خط حديد بغداد إذا أنجز لن يحقق لهم أي فائدة، وبالنسبة للخط الفرعي الذي بني سابقاً (لقد بُدِئ ببنائه من قبل رأسماليين إنكليز وفرنسيين، ولكنه الآن تحت إشراف الألمان) فإن هذا الفرع سوف يرتبط في

(١) لقد أخذ الألمان في العهد العثماني امتياز بناء خط حديد بغداد، وأخذ الفرنسيون امتياز جزء من خط حديد الحجاز، وأسسوا شركة شام حماة وتمديداتها. (المترجم)

(*) لقد وصل الخط الآن إلى حلب. (المؤلفة)

الساحل في مرسين، ولكن مرسين بعيدة عن حلب بعد بيروت، حيث إن خط الحديد الذي يمكن أن يوصل حلب مباشرة بالإسكندرونة غير محتمل.

١٢٥ ـ قلعة حلب

وبسبب خوف السلطان أكثر من أي شيء آخر من ربط طريق القوافل الداخلي بالساحل؛ لاحتمال أن تنتهز الجيوش الأجنبية ـ وبشكل خاص البريطانية ـ الفرصة لإنزال جيوشها من سفنها الحربية هناك، والسير من ثم نحو الداخل. وتبقى حلب كما كانت في الماضي المركز الرئيسي الكبير لتوزيع التجارة الداخلية.

ولكن حركة النقل أصيبت بالاختناق؛ بسبب التكرار القاتل لمصادرة الحكومة لجِمال النقل، وقد ازدادت الشكوى في السنة الماضية نتيجة لحرب اليمن، حيث تولت الدولة نقل الجنود من ثكناتها في الداخل إلى الساحل من

أجل ركوب سفن النقل البحرية، والذهاب عبر البحر الأحمر إلى اليمن، وقد توقفت حركة نقل البضائع التجارية لمدة شهر كامل، حيث بقيت محزومة ومتراكمة فوق بعضها في الأسواق انتظاراً للنقل، وإذا استمرت الحالة فترة أخرى فسيتوقف نقل البضائع نهائياً؛ لأن الجَمَّالة المتواجدين في المنطقة الشرقية لن يغامروا ويعبروا الخط الخطِر على جِمالهم في غرب السلطنة. وهنا كما هو الحال في مدن السلطنة الأخرى سمعت صرخة الإفلاس الرسمي، فالحكومة ليس لديها أي أموال من أجل إنجاز الأعمال الضرورية، فخزانة الدولة فارغة تماماً.

على الرغم من أن مكوثي في حلب كان قصيراً إلا أنني ربحت بعض المعارف، وكان من أهمهم والي حلب كاظم باشا، وهو رجل يختلف اختلافاً كبيراً عن والي دمشق، فالأخير رجل دولة طبقاً لمواصفاته، على حين أن كاظم ليس إلا رجل مزاج.

استقبلني في جناح الحريم، الأمر الذي كنتُ فرحة به عندما شاهدتُ زوجته التي كانت الأكثر جمالاً ممن يمكن أن يراه الإنسان، طويلة جليلة، برأس صغير جلل، بشعر أسود منسدل على كتفين رائعين، وأنف صغير مستقيم، وذقن مدببة، وحاجبين مقوسين فوق عينين تشبهان بحيرتين سوداوين. ولم أستطع أن أملك نفسي من استمرار النظر إلى وجهها عندما جلستْ معنا. كانت هي وزوجها شركسيان؛ الأمر الذي جعلني متيقظة قبل أن يفتح الوالي فمه، كلاهما كان يتكلم الفرنسية، ويتكلمها هو على نحو جيد، واستقبلني بطريقة جافة وكانت ملاحظته الأولى: «أنا الباشا الشاب الذي جلب السلام بين الكنائس». وكنت أعلم بما يكفي عن تاريخه، فأعلم أنه كان متصرفاً في

بيت المقدس عندما حدث الصِّدام بين الطوائف المسيحية، وانتهى بسقوط عدد من القتلى أكثر من المعتاد، وأنه قد حصلت آنذاك نوع من الوساطة الصعبة انتهت بتسوية، ولا أدري فيما إذا حصل ذلك بجهوده أو أن ضرورات الحالة اقتضت ذلك.

قال الباشا: ماذا تظنين عُمُري؟ .

وأجبتُ مجاملةً: أنا أظن أنك في الخامسة والثلاثين.

قال ـ بانتصار ـ: «ست وثلاثون، ولكن القناصل كانوا يُصغون إليّ. يا إلهي، كانت تلك فترة أحسن من هذه، رغم أنني الآن والٍ، فهنا ليس لدي مناسبة لأجتمع مع القناصل، ورجل مثلي بحاجة للمجتمعات الأوربية المثقفة».

«عامل آخر من عوامل عدم الثقة، الموظف الشرقي الذي يصرح أنه يفضل صحبة الأوربيين».

قال: «أنا أحب إنكلترا كثيراً».

وعبرتُ عن شكر بلادي بعبارات مناسبة.

أضاف بسرعة: «ولكن ماذا تفعلون في اليمن؟».

قلت: «يا صاحب الفخامة، نحن الإنكليز أمةٌ بحَرِية، وهناك مكانان فقط نهتم بهما في الجزيرة العربية كلها».

أكمل حديثي: «أنا أعرف، مكة والمدينة»

قلت: «لا، عدن والكويت»[1] .

(١) احتلت بريطانيا عدن عام ١٨٣٠، واحتلت الكويت في ستينات القرن التاسع عشر عندما وضع شيخ الكويت نفسه تحت الحماية البريطانية. (المترجم)

أضاف غاضباً: «وقد احتللتم كليهما».

قلت: نعم. وأنا مضطرة لأن أعترف أن لهجته لم تكن لهجة محب للإنكليز.

ثم أخذ يحدثني فوراً أنه الوحيد بين الباشاوات الذي يستعمل الوسائل الحديثة، فهو معني بعمل سكة معبدة تصل إلى الإسكندورنة، ليس لأنها ستكون عظيمة الفائدة كما أظن أنا؛ بل لأنه ليس هناك جمال لتسير عليها، مثل الطريق الذي عملها بين القدس والسامرة؛ فذلك الطريق ليس مثله في كل تركيا ـ ألا أعرفه أنا؟ وكنت قد سافرت مؤخراً عليه. واغتنمت الفرصة لأمتدح من أنشأه. ولم أجد ضرورة للذكر بأنه معطل في أسفل تلة هامة ولم يُرمم مرة أخرى حتى وصلت قمة الجبال اليهودية.

هذا كل ما يجب أن يقال حول أساليب كاظم باشا، وعلى نحو أكثر لطفاً بكثير كان التعرف بمطران الروم الكاثوليك، وهو دمشقي تعلم في باريس، وكان لفترة من الوقت راعي أبرشية الروم الكاثوليك في تلك البلدة مع أنه لا يزال شاباً نسبياً، وكنتُ قد زودته برسالة للتعريف بي فاستقبلني بعذوبة كبيرة في بيته الخاص، وجلسنا في غرفة مليئة بالكتب، ونوافذها مفتوحة على فناء قصره الهادئ، وتحدثنا في مسارات الفكر الغربي، ووجدت مع الإحساس بالسرور بأنه ـ رغم تعلمه وإقامته الطويلة في الغرب ـ ما يزال شرقياً في قلبه.

قال: «لقد انبسطتُ عندما أمرتُ أن أعود من باريس إلى بلادي، ثمة كثير من العلم وقليل من الإيمان في فرنسا، على حين أن سوريا رغم وجود كثير من الجهل فيها فإن العقيدة تستند على أساس قوي من الإيمان، والنتيجة التي يمكن أن تستقى من هذا التصريح ليست إطراء أو تملقاً للكنيسة، ولكنني أحجم عن التعليق.

وجاء بعد الظهر رداً على زيارتي ـ من الوالي حتى أصغر موظف يجب أن يراعي الجميع القواعد الاجتماعي ـ واضعاً صليبه الذهبي، ممسكاً عصا المطرانية بيده، وقد تدلى من قبعته التي ليس لها إطار حجاب وصل حتى ظهره، وقد طرُزّت حواف ثوبه الأسود بالأرجوان، وسار وراءه أحد القسس التابعين، ووجد عندي زائراً آخر يجلس معي في بهو الفندق هو نقولا الحمصي وهو مدير بنك من طائفته، وينتمي حمصي إلى أسرة مسيحية غنية مستقرة في حلب، ولمصرفه فرع في مرسيليا وآخر في لندن، وبينه وبين المطران ثقة متبادلة جميلة وتعاون في معظم الأعمال مع أفضل الطبقات المتعلمة في سوريا، وهم من يعاني من قبضة الأتراك ـ الكاهن بسبب المعارضة الرسمية العمياء، والتي لا معنى لها يصادفها المسيحي في كل مكان، فالمصرفي بسبب صراخه العالي من أجل التقدم الذي لا يريد الأتراك أن يفهموه ـ.

وسألتهم عن تصورهم لمستقبل البلاد، ونظر كل واحد منهما إلى الآخر وقال المطران: أنا لا أعرف، وقد فكرت عميقاً بالأمر، ولا أستطيع أن أرى مستقبلاً لسوريا حيثما تلفت بحثاً عن طريق. هذا هو الجواب التنبئي الوحيد الذي سمعته حول أي جزء من القضية التركية [1].

لقد رتب السلطان الوضع في حلب بحيث يكون ملائماً بشكل خاص للباشاوات غير المرغوب فيهم بإستنبول، فالمدينة مليئة بالمنفيين حتى أن الزائر المؤقت يستطيع أن يتعرف ـ مع بعض الصعوبة ـ على عدد قليل منهم.

(١) كان الغرب يحاول أن يجد أرضية لتمزيق الدولة العثمانية، وكان يعمل على إثارة المسألة الطائفية، وكانت أداته الرئيسية في هذا استغلال التصرفات الشاذة التي تظهر هنا وهناك بين أفراد الطوائف. (المترجم)

كان واحد منهم ينزل معي في الفندق، وهو رجل لطيف مهذب متشائم، لا يتوقع الإنسان أن يكون ثوري الهوى، وربما لم يكن مع الثوريين وإنما عوقب لفلتة لسان، نقلت وضخمت من قبل عدو أو جاسوس.

وقد اعتدتُ أن أرى العديد من هؤلاء المنفيين مبعثرين هنا وهناك في آسيا الصغرى، ولم يتفق أن أخبرني أي واحد لأي سبب كُتب عليهم أن يعانوا من العقوبة، ومما لا شك فيه أن لدى بعضهم ما يريب، كما أن آخرين منهم يعرفون ذنوبهم بدون ريب، ولكن كثيراً منهم أبرياء يجهلون على ما يظهر سبب نفيهم، ويُلقي هذا الأمر حِملاً ثقيلاً على مشاعر الرجل الوطني التركي أكثر مما قد يبدو للوهلة الأولى.

والحقيقة أن هؤلاء الباشاوات المنفيين هم وطنيون نادرون جداً يدفعون ثمن انتمائهم للفكرة الوطنية، وهم أميل إلى أن يكونوا ضحية تحولٍ مؤسفٍ غير محظوظ لحوادث ابتعدت بهم عن النظام الموجود. وإذا كان ثمة أي أملٍ أو فرصة لأن يعودوا إلى الحظوة فستجدهم قلقين عصبيين حريصين حتى في المنفى أن لا يقوموا بأي عمل يمكن أن يؤدي إلى زيادة ريبة الحكومة، إلا عندما يقررون أن لا أمل لهم مادام السلطان الحالي حياً، أو أن يقيموا صلات صداقة حرة مع الغربيين، أو أن يتحدثوا بحرية عن أحزانهم.

ولا يوجد بالقدر الذي أراه أي كتلة منظمة للقائلين بحرية الرأي في تركيا بل مجرد أشخاص ناقمين على أسس محض شخصية مرتبطة بسوء الحظ، ويبدو من غير المحتمل أن يقدم المنفيون ـ عندما يعودون إلى إستنبول بعد موت السلطان ـ أي خطة للإصلاح أو يظهروا أي رغبة بتغيير النظام الذي يعيشون بظله من خلال ثورة المصالح الطبيعية عندما يجدون أنفسهم مرة أخرى أشخاصاً مهمين.

وثمة طراز آخر من النفي يمكن أن يراه الإنسان في تركيا، حيث يعين المغضوب عليه والياً في منطقة بعيدة كما هو حال ناظم باشا والي دمشق. وكذلك حال صديقي محمد علي باشا الحلبي، والأخير رجل مهذب في الثلاثين من عمره متزوج من إنكليزية، وقد صحبني إلى منزل الوالي وحصل لي على إذن بزيارة قلعة حلب مستنبطاً في نفس الوقت وسائل متعددة ليجعل نفسه مفيداً لي، وزوجته سيدة صغيرة لطيفة من بريكستون كان قد قابلها في إستنبول وتزوجها هناك، الأمر الذي ربما أضاف سبباً آخر لسقوط أسهمه، وذلك أن الإنكليز غير مقبولين جداً في قصر يلدز[1].

ومحمد علي باشا رجل نبيل بكل ما في الكلمة من معنى، ويحاول أن يجعل زوجته سعيدة، ولكن يجب أن يكون مفهوماً بكل وضوح أنني لا أحبذ بشكل عام زواج باشاوات الأتراك بآنسات بريكستون. هذا على الرغم من أن زوجة محمد علي تلعب التنس في نادي التنس، وتذهب إلى مجموعات الخياطة للجالية الأوربية. فهنا مجبرة أن تراعي إلى حد ما عادات النساء المسلمات، فهي لا تسير في الشوارع بدون حجاب «لأن الناس سوف يقولون أن زوجة الباشا تسير سافرة» قالت.

وذهبنا إلى القلعة في الساعة الوحيدة التي أشرقت فيها الشمس خلال وجودي في حلب، وعملنا جولة بصحبة ضباط يبلسون ثياباً رسمية فاخرة

(١) كانت مطامع الإنكليز والفرنسيين في الدولة العثمانية واضحة، فقد احتل الفرنسيون الجزائر وتونس وموريتانيا واحتل الإنكليز مصر والسودان وقبرص ومطامعهم في شواطئ الجزيرة العربية واضحة سواء في عدن أو الكويت. وقد لجأ العثمانيون إلى التحالف مع الألمان ليواجهوا المطامع الإنكليزية والفرنسية، وقد تورطوا نتيجة لذلك في الحرب العالمية الأولى بتحالفهم مع الألمان الأمر الذي أدى في النهاية إلى تمزيق الدولة العثمانية على النحو المعروف. (المترجم)

ويتمنطقون بسيوفهم وحرابهم، وقد كانوا قلقين بشكل خاص لئلا أدخل المسجد الصغير المُقام في منتصف القلعة، في البقعة التي حَلَبَ فيها إبراهيم بقرته[١].

ويقولون: إن اسم حلب يعود لأسطورة تاريخية شائعة، وليس هناك شك بأن كلمة حلب تعود إلى نفس الجزر الذي يفيد حَلْبَ الحليب. وعلى الرغم من الإشارة العميقة لموضوع المسجد فقد استمتعت كثيراً بالمنظر من قمة المئذنة. فسهل الهلال الخصيب يمتد أمامناً منبسطا مثل الصفحة حتى الفرات الذي يمكن رؤيته من القمة في الأيام المشرقة[٢]، وقد كان يمكن أن ترى بغداد لولا انحناء كروية الأرض الطبيعي حيث لا يوجد أي حاجز أمام العين في هذا السهل العظيم.

١٢٦ ـ سقاء الماء

(١) هذه قصة خرافية عامية.. فإبراهيم لم يصل إلى شمالي سوريا أبداً، وإنما جاء من أكاد في جنوبي العراق إلى فلسطين مباشرة، وقصة حَلْبِ البقرة الشهباء محاولة تعليل عامية لاسم حَلَب الآرامي. (المترجم)

(٢) إن المؤلفة تبالغ بدون شك. (المترجم)

وتحتنا كانت أسطح الأسواق والخانات متلاصقة متعنقدة يتخللها هنا وهناك باحات البيوت الرخامية وأسنة المآذن الدقيقة. والأشجار والماء قليلان في المنظر العام، ويشكل الماء مشكلة أساسية في حلب، فالجدول الراكد الذي ينبثق من المطخ يجف في الصيف [1]، ومياه الآبار عسيرة وكريهة على مدى العام، ويجب أن يجلب إليها ماء الشرب من مسافة بعيدة، ويكلف مصروف البيت الواحد من الماء قرشاً في اليوم على الأقل مما يضيف عبئاً إضافياً على تكاليف المعيشة. والمناخ عموماً جيد، بارد جداً في الشتاء ولا تدوم حرارة فصل الصيف العالية أكثر من شهر أو شهرين. هذه هي حلب المدينة العظيمة باسمها الذي يملأ الآفاق، وآثار ماضيها المجيد.

(٣) إن نهر قويق ينبع في تركيا ويصب في مستنقع المطخ ولا ينبع منه كما تقول المؤلفة. (المترجم)

openkandl.com